قسم اللغة والأدب العربي. كلية الآداب واللغات. جامعة محمد بوضياف– المسيلة.

مقياس: النص الأدبي المعاصر. السداسي الثاني.

السنة الثانية ليسانس. دراسات أدبية. المجموعة الأولى.

المحاضرة 05+06 – الحداثة الشعرية.

أهداف المحاضرة: من خلال هذه المحاضرة سيتعرف الطالب على:

- ✓ – **مفهوم مصطلح الحداثة.**
- ✓ – **نشأة الحداثة الغربية.**
- ✓ – **إرهاصات الحداثة العربية.**
- ✓ – **منطلقات الحداثة وخصائصها.**

لعل سؤال الحداثة من أكثر الأسئلة تداولا في حياتنا العربية منذ ما ما يزيد على القرن من الزمن، ذلك أن الإنسان العربي ظل يتساءل عن الحداثة، ينقب عنها يحن إليها، يرفضها تارة ويقلبها أخرى، يراها ضرورة صالحة حينا، وتطفلا باطلا حينا آخر، يحتضنها مرة لأنه يحتاجها لحماية نفسه، ويغلق دونها الأبواب وينظر إليها كأنها جسد غريب مرة أخرى، لأنه يراها تحطم ماضيه وذاكرته بل ووجوده المقدس.

1– مفهوم الحداثة:

إن مصطلح الحداثة يشكل قضية إشكالية، إذ كثر فيها الجدل، وتداخلت فيها الإيديولوجيات، وما يزال الاختلاف في تحديد مصطلح الحداثة قائما. الحداثة نقيض القدم والكلاسيكية والتقليدية.

الحداثة من الفعل (حدث)، نقيض (قدُم) في المعنى، وكلمة حداثة هي مصدر الفعل، أما كلمة (حديث) فهي الصفة المشبهة المشتقة من الفعل (حدث)، والحديث هو المتصف بالحداثة. تشير الحداثة إلى الابتداء والخرق والانتهاك وعنف الخروج على ما هو متعارف عليه. الحداثة هي رفض الأشكال الأدبية المتعارف عليها، ورفض الواقع وقيمه السائدة، ورفض التسلسل والوضوح، وقد تلجأ إلى الغرابة والإدهاش والغموض والأحلام، فهي تفجر اللغة، وتتجلى في قصيدة التفعيلة (الشعر الحر)، وقصيدة النثر.

الحداثة ليست مدرسةً أو مذهباً أدبياً، هي فن مديني، وصفة لازمت فن القرن العشرين. الحداثة لها عدة معان، معنى زمني ويقصد به العصر الذي نعيش فيه. معنى فني وهو مجموعة السمات والخصائص في شكل الفن ومحتواه إذا توفرت في عمل عد حديثا.

رغم وجود لفظة الحداثة ضمن معاجم وقواميس اللغة العربية مرادفة لمعنى الحديث، فإنها ظلت بعيدة عن الممارسات النقدية العربية القديمة. واستعيض عنها بـ"المحدث" و"المولد" وغيرهما من المصطلحات التي نجدها عند النقاد القدامى، ولم تستعمل الحداثة كمصطلح إجرائي وظلت اللفظة (الحداثة) مرتبطة بأصلها وجذورها اللغوي والمعجمي "حدث" كما ظلت غريبة وغير متداولة حتى ظهرت مصطلحات تقترب منها دلالة بل تجاوزتها، واكتسبت مشروعيتها في الكتابات النقدية والإبداعية على السواء كالتجديد والتحديث والحديث والمعاصرة... الخ، وبقي لفظ الحداثة محتشما ينتظر ظهور الشعر الحر ليعلن نفسه كمصطلح إجرائي في الكتابات النقدية العربية، ومنذ ذلك الحين، وهو مصطلح ثابت في وجه التيارات المضادة.

أما اصطلاحا فقد تعددت تعاريف الحداثة فقيل هي ذلك الوعي الجديد بمتغيرات الحياة والمستجدات الحضارية، والانسلاخ من أغلال الماضي والانعتاق من هيمنة الأسلاف، ليست مقصورة على فئة أو طائفة أو جنس بعينه بل هي استجابة حضارية للقفز على الثوابت. وبذلك فهي محاولة الخروج عن الأنماط التقليدية والأشكال العتيقة، إنها محاولة إبداع أشكال ومضامين جديدة وغريبة، و"كل جديد غريب"، كما يقول **(بودلير)**.

الحداثة هي انزياح على السنن المعروف والنهج المألوف، فينعكس ذلك في لغة وصور غير مألوفة، فهي حسب **(أدونيس)** "رؤيا جديدة وهي جوهريا رؤيا تساؤل واحتياج، تساؤل حول الممكن واحتجاج على السائد"، إنها بذلك مرحلة التنافر والتصادم بين البنية السائدة وما تتطلبه حركة المجتمع من تغيير يستجيب للحظة التاريخية المعاشة، إن مفهوم الحداثة يضع التراث كشيء معطى في إشكالية معقدة مع البنية الحديثة التي تحاول تأسيس وجودها لا على التراث، إنها انتزاع لأشكال التعبير من أسر المطلق، وبعبارة أوضح إنها تحرير التعبير كما ترى "**خالدة سعيد**" في كتابها **(حركية الإبداع)**.

من خلال قول أدونيس هذا يتضح لنا أن الحداثة تقف من الأشكال القديمة موقف الرفض النسبي مؤمنة أن لكل عصر ظروفه الخاصة به ومميزاته المكونة له والتي تختلف طبعا عن ظروف ومميزات الأزمنة السابقة، فضرورة التجديد، إذن أمر حتمي.مع الإيمان بأن ما هو قديم كان جديدا في عصره ، وما نعتبره نحن اليوم جديدا سيصبح يوما ما قديما .

إن هاجس الحداثة والتجديد والخروج عن التقاليد البالية، فكرة تسكن إنسان كل فترة تاريخية، ورواد كل مرحلة أدبية، وذلك من أجل تشكيل فن أدبي يساير العصر المُعاش، بكل تركيباته وظروفه المميزة له عن

العصور السابقة، وبتعبير آخر أن الإنسان يسعى دائما وراء الخلق والإبداع مادام الإبداع يمثل بداية جديدة، وهو عبارة عن تعارض بين واقع قائم وواقع غير متحقق، أو حركة تؤثر بين راهن ومحتمل حسب تعبير خالدة سعيد، إلا أن الثورة على السائد تختلف وضوحا وضبابية من مبدع إلى آخر ومن عصر إلى آخر. وقد احتفظت لنا كتب تاريخ الأدب العربي بأسماء شخصيات أدانت التقليد وتمردت على السائدة، وبالتالي حاولت التحديث والتجديد والنفور من الأنماط القديمة شكلا أو مضمونا أو هما معا.

وإذا كانت الحداثة ثورة ومحاولة تجاوز للثابت، فهي متجذرة في كل الشعوب وإنها ملازمة للقدم في كل مجتمع وفي كل مرحلة، وليس غريبا أن تختلف أبعادها وأشكالها من مجتمع إلى آخر أو من زمن إلى آخر، فالحداثة الشعرية هي دائما حداثة شعر معين، في شعب معين، في أوضاع تاريخية معينة، ومن هذا المنطلق يحق لنا أن نتتبع، في اختصار خطوات الحداثة عبر محطات تاريخنا الشعري.

يذهب أدونيس، في الثابت والمتحول:(صدمة الحداثة)، إلى أن الحداثة كانت منذ العصر الجاهلي، فهو يؤرخ لها منذ الصعاليك، باعتبارهم حاولوا الخروج عن القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع الجاهلي ويبني قيم أخرى كان الذوق القبلي الجمعي يعتبرها غريبة وغير مألوفة، ومع ظهور الإسلام نبغ شعراء متأثرون بالثورة الإسلامية والحركة الدينية الجديدة فجاءت موضوعاتهم منسجمة مع القيم الجديدة ثائرة على قيم كانت محمودة، وداعية إلى قيم كانت مذمومة ، بل إن الإسلام شكل في حد ذاته حداثة بثورته على الأعراف والتقاليد المجتمعية الجاهلية، وبعد انتشار الإسلام شكل شعر الخوارج حداثة برفضه للقيم الاجتماعية المعاشة.

إلا أن الحداثة إلى هذا الحين، لم تكن تركز إلا على جانب القيم الاجتماعية في وقت ظل الشكل القديم هو المهيمن، بينما في العصر العباسي نجد التجديد أكثر وضوحا، وقد أسهب النقاد القدامى الحديث عن الحداثة في الشعر، وعن الصراع بين القديم والمولد أو المحدث، وتم التركيز بشكل أساسي على الشكل، ويكفي أن نذكر هنا أسماء مثلت الحداثة الشعرية بخروجها عن الأشكال الموروثة، مثل أبي نواس وبشار وأبي تمام وغيرهم، وكان المعاصرون لهم يدركون أن شعرهم كان بالفعل، شيئا غير مألوف : فقد ثار كل من أبي نواس وبشار بن برد على القيم العربية فوجدنا بشارا يتمرد على قيم العرب السائدة في المجتمع من حيث الأكل ونمط العيش.

كذلك نذكر حركة الموشحات الأندلسية، وما سجله أصحابها من خروج على سنن الشعر القديم، أوزانه وقوافيه.

وتجدر الإشارة إلى أن الحداثة مع هؤلاء جميعا كانت أحادية الجانب، لأنها ركزت على القيم الاجتماعية (الصعاليك، الإسلام، الخوارج...) أو على الشكل (شعراء بني العباس – الموشحات – الزجل...).

أما في العصر الحديث فقد ظهرت الحداثة بشكل أكثر جدية بشكلها التام. إذ أثارت إشكالية الحداثة ضجة كبرى بين النقاد وأصبحت موضوعهم الراهن، بل ومجال حديثهم في كل الصحف والمجلات والكتب، التجديد والخروج عن الأنماط التقليدية، ما دامت الإنسانية في تطور مستمر، فالإنسان يسعى دائما إلى التغير والتطوير، لأن نفسه لا تخول له اجترار نفس الأنماط والعيش على التقليد. إذ أن متطلبات الحياة تلزم عليه البحث والتنقيب عن المناسب، ومن تم فهو دائما طموح إلى الحداثة والتحديث في كل مجالات الحياة، ومن البديهي أن يختلف فهم الحداثة من منطقة إلى أخرى تبعا لاختلاف الظروف والملابسات، التي أنشأتها، بل واختلاف القراءة والفهم.

يرى **محمد بنيس** أن الحداثة العربية لا تتفاعل مع محيطها، وأنها نبتت في غير التربة العربية، وهي بذلك تظل جسدا غريبا عنا. وأن النقاد لا يزالون يتحفظون أثناء التعامل مع إشكالية ومصطلح الحداثة، وأنهم لازالوا لم يقتحموا موضوعها بجرأة كبيرة، في وقت بدأ فيه الغرب يخطط لمرحلة **(ما بعد الحداثة)**، وفيما نحن ما نزال معلقين بأوهام التدرج في مراتبها.

يكاد **أدونيس** يشاطره الرأي في أن الحداثة الشعرية العربية متأثرة بالحداثة الغربية، إلا أنه يرى أن هذا التقليد مقصور على الأشياء الشكلية والعرضية دون المسائل الجوهرية.

يظهر من خلال ما سبق أن الحداثة العربية متأثرة بالحداثة الغربية بل أكثر من ذلك، فالمعادين لحركة الحداثة وللأشكال الشعرية الجديدة يذهبون إلى أنها لم تكن غير صورة طبق الأصل للأشكال الأوروبية، ولا علاقة لها بالشعر العربي وأنها جسد غريب– حسب تعبير بنيس– يعيش بيننا إلا أن المتحمسين لهذه الحركة والذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عنها، يذهبون إلى أنها من أصل عربي ولا علاقة لها بالغرب، ومبررهم على ذلك هو أن لكل مجتمع خصائصه وظروفه وملابساته المختلفة عن أي مجتمع آخر.

كما نجد **أدونيس** يؤكد أن العرب عرفوا الحداثة إذا كانت تعني "التغاير والخروج من النمطية والرغبة الدائمة في خلق مغاير" منذ القرن الثامن أي قبل بودلير ومالارميه ورامبو بحوالي عشرة قرون، وهي إذن ليست مستوردة ولا دخيلة، وإنما هي ظاهرة أصلية وعميقة في الشعر العربي، ونكاد نصادف نفس النظرة تتكرر عند **نازك الملائكة** إذ ترى أن حركة الحداثة كانت (اندفاعة اجتماعية)، وأن حركة التجديد لها جذور عميقة في تراثنا، وبذلك فإن محاولات وأدها قد فشلت كلها.

2– نشأة الحداثة الغربية:

- نشأت الحداثة نتيجة التحول من الإقطاع إلى البرجوازية فالرأسمالية والاشتراكية، ومن التقدم الصناعي إلى التقدم التقني.

- اختلف في تحديد بداياتها، فإما أنها بدأت منذ عصر النهضة وحركات الإصلاح الديني والثورة الصناعية، وانفصال الدين عن الفن. وإما أنها بدأت منذ عهد الثورة الصناعية الثانية وانطلاق أول قمر صناعي، والثورة الروسية 1917.
- بدأت بوادر الحداثة مع نهاية الرومانسية، وبدايات الرمزية في الشعر الفرنسي، و(بودلير) أول من استعمل مصطلح الحداثة، وترتبط عنده بالأبدي والفن، وهي ثورة على نظرية المحاكاة.

3- إرهاصات الحداثة العربية:

- يمكن إجمالها منذ بداية الحملة الفرنسية على مصر.
- ظهور المدرسة الرومانسية التي حملت بذرة الحداثة عند عدد من شعرائها والتي تجلت في الثورة على الوزن والقافية، وكتابة الشعر المنثور، وأول من كتبه أمين الريحاني، وكذلك شاعرية جبران وجماعة أبولو.
- الثورة على الأغراض الشعرية القديمة، والدعوة إلى بناء القصيدة ووحدتها، والإبداع في طرائق تعبير جديدة والخروج من الغنائي إلى القصصي، ومن السطرين إلى التفعيلة.
- الحداثة في الوطن العربي جاءت مستهلكة.

4- منطلقات الحداثة وخصائصها:

تتجلى في الشعر في:

- تفهم الشاعر لروح عصره.
- تفهم العلاقة مع التراث.
- الانفتاح على النظريات الجمالية والفنية.
- التحديث الموسيقي في الخروج من دائرة البيت الكلاسيكي القائم على الشطرين، وإتاحة الحرية للشاعر ليعبر عن تجربته الشعورية والشعرية.
- النزعة الدرامية ودخول تقنيات السرد، وخلق الشخصيات الدرامية.
- رفض التجريد والتقرير والمباشرة الخطابية. والموضوعات (الحب، المرأة، المدينة...)
- التجربة والرمز والأسطورة واللغة الموحية والرؤيا، وحلول شعر التجربة (الذاتي) محل الموضوعي.
- خلق قرانات جديدة في اللغة حسب السياق الجديد، فتوحي الكلمة بدلالات متعددة.